الغربية المشتبكة مع المقاومة ، وبين الجسد الجغرافي القابل للصدمة ، حيث التجمع السكاني الاسرائيلي الاكثف ، في فلسطين المحتلة . ونجحت اسرائيل نسبياً في ذلك (ما عدا فشلها الصارخ في غزة) ولم يساعدها في ذلك جهاز عسكري وأمني وتجمع سكاني عصري ومتفوق تقنياً ومجتمع حرب مدرب على ذلك فحسب ، بل ساعدها كذلك في المستوى نفسه الانعدام شبه الكامل للنشاط الوطني والتقدمي المعبّىء والمنظم والمثقف والمدرب في الضفة الغربية ، طوال السنوات التي سبقت الاحتلال في ١٩٦٧.

بعد شهور من معركة الكرامة كان الاعلام المتعلق بالعمل الفدائي قد وصل الى مدى لم يصله اعلام جبهة التحرير الفيتنامية الجنوبية حتى الآن ، وادى ذلك الى اتساع الهوة بين المهمات التي انتدب هذا الاعلام حركة المقاومة الوليدة لانجازها والقدرة الحقيقية ، المحكومة بالظروف الموضوعية والأداة الثورية ونضوجها ، لهذه الحركة . في الشتاء الماضي انجز الاسرائيليون عسكرياً ما كانوا قد بدأوه بعد شهور من معركة الكرامة ، فأثبتوا حاجزاً معقداً على ضفة النهر الغربية في محاولة جندوا فيها حصائل مجموع الخبرات الاستعمارية التكنولوجية لمنع انتقال المجموعات الفدائية الى الضفة الغربية من النهر . هكذا ، وقياساً على المستوى الذي وصلته الاندفاعة الثورية الاولى التي تسلقت الى ذروتها في اعقاب معركة الكرامة ، فان العمل الفدائي نسبياً ، يمر الآن في مرحلة ركود . وهذا الركود لا يعود الى الاسباب والظروف العسكرية فحسب ، بل هو يعود بالدرجة الأولى الى كون الاعلام الفلسطيني والعربي من حيث أراد - اذا أحسنا الظن - تعبئة الجماهير العربية ، خدرها من جديد ، وسلك في ذلك ، على مستويات مختلفة ، الطريق الخاطىء الذي كانت الانظمة تسلكه ما قبل حزيران ، وهو الطريق الذي يؤدي إلى اعتبار الحماسة الجماهيرية من مواقع المتفرجين بديلاً عن القتال بهم ومعهم وأمامهم ووسطهم، ويغني عن مضاعفة الجهد في تعبئتهم وتوعيتهم وتنظيمهم .

ان فترات الركود ، التي تجيء في اعقاب استنزاف الاندفاعة الثورية الاولى لنفسها ، هي ظاهرة طبيعية شهدتها معظم الثورات في العالم ، وهي في جوهرها لا تشكل علامة خطيرة ، على انها بلا ريب فترة تواجه فيها الثورة جزءاً كبيراً من عوامل الحكم على مصيرها برمته ، وذلك يتوقف على الاسلوب الذي ينبغي اتباعه في مواجهة هذه الظاهرة :

- هل نواجه مثل هذه الفترة بتجاهلها ؟

- ام نختار مخرجاً اعلامياً لها ؟

- ام ترى نمعن في المعاندة دون اجراء تعديل استراتيجية وتكتيك نشاطها ؟

ما الذي ينهي هذه المرحلة ، ويضع المقاومة في بداية الاندفاعة الثانية ، التي تنقلها من مرحلة الى اخرى ؟ ان هذه المرحلة في ظاهرها تبدو عسكرية بالدرجة الأولى ولكن في اسبابها ونتائجها هي بلا ريب سياسية ، وذلك هو بالضبط ، على صعيد عملي وواقعي ، النقطة التي تبدو فيها المسألة العسكرية ، منعزلة عن الفكر السياسي ، مجرد نقطة عائمة في الهواء والمجهول. وهنا ، بالضبط ، تقول النظرية الثورية كلمتها ، وهنا بالضبط يبدو صحيحاً تماماً القول بان

النظرية الثورية ليست مذهبية مغلقة على نفسها ، ولكنها دليل عمل تفسر ، كي يصبح بمقدورها أن تغيّر .

ان فترات الركود في الثورات تشهد عادة - كما تقول لنا التجارب الثورية التاريخية - نمواً غير عادي لظواهر غريبة : ذلك ان الامعان في تجاهل حالة الركود هذه يؤدي بالطبيعة وبالضرورة الى بروز «تفسيرات» واسباب و«ظواهر» إن هي أصرت على تجاهل الاسباب والمخارج الحقيقية - معاندة أو قصوراً - فلا مفر من أن تكون هذه الظواهر والتفسيرات والاسباب جزئية والى حد بعيد مرَضية . ان فترة الركود هذه هي فترة نمو الذاتية على حساب الموضوعية ، وانبثاق مظاهر الاشكالات الجزئية الصغيرة ، وتبادل الاتهامات ، وحصول الانشقاقات ، وهيمنة التنظيرات والصيغ اللفظية والمزايدات ، والصراعات الجانبية ، وتغيير أشخاص القيادات ، والى ما شابه ذلك . ولا ريب ان استمرار هذه الظواهر لفترة طويلة ينهك الثورة ويفتتها ، أو يفتح للعدو المتربص ، الذي يدرك ذلك عملياً وبالممارسة ، باباً واسعاً لمحاولة تصفية نهائية ، يحاول تنفيذها ضد الثورة . ان المخرج هو بلا ريب في التقدم الى الامام ، وثمة عملية تصحيح لا بد منها، وهي عملية لا مهرب لها من أن تمارس على قدم المساواة وبصورة جدلية ، على المستوى السياسي والتنظيمي وعلى مستوى الممارسات السياسية والعسكرية ، في آن واحد ، وأن تتبادل انجازاتها في أي مستوى من هذه المستويات الثلاثة ، وتعكس نفسها بصورة فعلية في ذلك الترابط العضوي بين هذه المسائل الثلاث .

نقول : التقدم الى الامام ، بمعنى الادراك الحقيقي لتلك العلاقة الوطيدة بين النضال القومي والنضال الطبقي ، العلاقة الجدلية التي تعني أن تصعيد أحد وجهي هذا النضال الواحد هو تصعيد للآخر ، والتي تعني في الوقت نفسه ان الاستسلام في أحدهما هو استسلام للآخر . ذلك يشكل ضرورة استراتيجية ينبغي لها أن تبني اطاراً يتسع لمرونة كافية في التكتيك. ان عبارة النضال القومي لا تعني هنا ضرورة خوض المعركة الفورية للوحدة العربية ، كما أن عبارة النضال الطبقي لا تعني هنا بالضرورة خوض الاقتتال الفوري والدامي ضد الطبقات المستغلة، ولكن هاتين العبارتين تعنيان بلا ريب تطويع المسيرة التحريرية الفلسطينية على خطي قدرها ومصيرها وضروراتها .

نقول التقدم الى الامام : بمعنى الادراك الحقيقي لابعاد المواجهة الراهنة ، مواجهة معسكر العدو الكثيف الذي استنفرته المقاومة الفلسطينية المسلحة ، المدعمة بتفوق تكنولوجي وبقدرات الامبريالية وبتواطؤ الرجعية ، في مقابل ملايين الجماهير العربية والامكانات العربية المعطلة ، والواقفة بالانتظار . نقول التقدم الى الامام : بمعنى الادراك الحقيقي للمرحلة التي تجتازها المقاومة الفلسطينية ، مرحلة العمل الدؤوب على خلق المناخ الثوري وانضاج الظروف الموضوعية التي توفر أدوات الثورة القادرة على تحقيق مهمات بهذه الخطورة ، كما ونوعاً ، واستبدال الاعلام الدعاري الفضفاض بالتثقيف الثوري والتوعية الوطنية ، واستبدال العصبوية الضيقة بالتنظيم الثوري ، واستبدال الممارسات العسكرية الكلاسيكية وشبه الكلاسيكية بارتال الجماهير المنظمة والمسلحة والمقاتلة .

ان المخرج من المأزق الراهن لا يمكن اجتراحه الا من خلال تقييم موضوعي لسمة المرحلة